ناحية التاريخ

من ادب أبي العلاء المعري

سيدي الرئيس ، سيداتي ، سادتي .

يقول أبو العلاء في بعض لزوميانه :

ماكان في هذه الدنيا بنو زمن الا وعندي من اخبارهم طرف

فهو يدعي أنه ما من امة وجدت فيهذه الدنيا الا وقد ألم بطرف من أخبارها وعرف شيئاً من تصاريف احوالهـا . والحق ان أبا العلاء لم يصطنع المبالغة . ولم يركب متن الشطط عند ما ادعى هذه الدعوى . فقد أدرك من اول أمره أن العاهة الجثمانية التي لحقته منذ طفولته لاشك مانعته من معرفة الطبيعة الانسانية من طريق البيان والمشاهدة غير أنه فطن الى أن في وسعه أن يتدارك مافوته عليه هذه الآفة المحتومة من طريق الاطلاع على ماضي الانسانية المسطور في تاريخهـا . فالطبيعة الانسانية واحدة لاتختلف ، والنـاس هم الناس بعد العهد بهم ام قرب . ذلك اصل ولع أبي العلاء بالتاريخ . ثم نجده يزداد به ولعاً عند رجوعه من بغداد الى بلده ، واعتزامه لزوم ثاني محبسيه. فان أبا العلاء لم يرد باعتزاله الناس أن يضرب بينه وبينهم حجاباً كثيفاً لايراهم من دونه ولا يرونه ، وانما اراد بالعزلة أن يكون بنجوة من مخالطتهم وملابستهم وأن تتاح له حرية درس احوالهم ونظمهم ومصاير امورهم دون أن تمتد اليه ايديهم ، ودون أن يعرضوا له بما يوجب له شغل الخاطر وهم القلب وفتنة النفس فكأنه اراد أن يقطع صلته بالناس من ناحية ليصلها بهم من ناحية أخرى هي ناحية الاطلاع على أخبار الماضين منهم والغابرين أي من ناحية الاطلاع على التاريخ . على أنه اذا كانت الضرورة هي التي قضت على أبي العلاء بالاطلاع على التاريخ فهناك سبب آخر حبب هذا العلم الى عقل شاعرنا

الفيلسوف وقلبه . ذلك أن التاريخ قد يكون الذ العلوم واشدها امتاعاً متى ورد الانسان ساحته وقلب صحائفه بفهم ذكي وقلب سليم . هو موكب الامم ومعرض الحياة الانسانية ، فيه تبين مواطن الضعف والقوة من تلك الحياة وفيه تظهر اسباب عظمة الشعوب واسرار اضمحلالها . فيه حكمة الحياة واضحة لالبس فيها ولا ابهام . فاذا كان أبو العلاء قد اقبل على التاريخ يتلو صحائفه ويستخرج عبره فان ذلك انما كان عن ضرورة اول الامر ثم عن حب له وشغف به اخيراً .

على أن اطلاع أبي العلاء على التاريخ كان بطبيعة الحال محدوداً بحدود الرواية التاريخية العربية على نحو ماوصلت اليه في ايامه أي في النصف الثاني من القرن الرابع والنصف الاول من القرن الخامس الهجري . فماذا كانت حدود هذه الرواية ؟

لقد ابتدأت الرواية التاريخية العربية في القرن الاول الهجري ثم نمت نمواً مطرداً وتنوعت تنوعاً بيناً في القرون الثلاثة التالية . فدونت اخبار العرب قبل الاسلام واخبار الامم التي كان للعرب اتصال بها كالفرس والروم والهنود والمصريين والاحباش وكل ذلك كالمدخل الى التاريخ الاسلامي ثم دونت سيرة الرسول عليه السلام واخبار المغازي والفتوح واخبار الدولتين الاموية والعباسية، وما تفرع عن الاخيرة من دويلات عدة بعضها في الشرق كالطاهرية والسامانية والغزنوية والبويهية والحمدانية وبعضها في الغرب كالطولونية والاخشيدية والادريسية والفاطمية وقد وضعت في كل ذلك كتب كثيرة ذكر اكثرها ابن النديم في الفهرست في الفصل الذي عقده للاخباريين خاصة . وقد سلم لنا من هذه التآليف شيء غير قليل نذكر منه كتاب السيرة لابن اسحق بتلخيص ابن هشام ومغازي الواقدي وطبقات ابن سعد وكتب ابن قتيبة والدينوري والبلاذري واليعقوبي وتواريخ الطبري والصولي والمسعودي وأبي الفرج الاصفهاني ومسكويه . لاشك أن أبا العلاء اطلع على جل هذه الكتب ان لم يكن اطلع عليها كلها ، فقد كانت في متناول يده في مكاتب المعرة واللاذقية وحلب ودار العلم ببغداد ولا ادل على سعة علمه بالتاريخ العام واخبار العرب قبل الاسلام والتاريخ الاسلامي من كثرة استشهاده بالحوادث التاريخية كثرة رائعة في نثره وشعره . ففي الرسالة التي يعزي

فيها خاله أبا القاسم بن سبيكة باخيه نجده يسرد اسماء الانبياء من لدن آدم الى محمد (ص) ثم يتبع ذلك بسرد اسماء ملوك اليمن فملوك الحيرة وغسان والفرس وسادات العرب في الجاهلية وكل ذلك على سبيل العبرة والموعظة وبيان أن كلا منهم قد صار بعد العز وعلو الشأن الى الموت والفناء ونجده في « رسالة الغفران » يخبر في القصيدة السينية التي قالها على لسان الجني « أبي هدرش » كيف استغوى هذا الجني في جاهليته كثيراً من خلق الله ملائكة وغير ملائكة الى أن بعث الله نبيه محمداً (ص) فآمن به وصدقه واشترك معه هو وقبيله من الجن في غزوات بدر واحد والخندق كما اشترك بعد في وقائع اليرموك والجمل وصفين والنهروان . وكثيراً مايورد أبو العلاء في «رسالة الغفران» تلميحات وأشارات الى الفرق والنحل الاسلامية من سنة وشيعة ومعتزلة ومرجئه كما ذكر الزنج والقرامطة والمختار بن أبي عبيد والمنصور اليمني والحلاج . ومن الطريف انه ساق في آخر رسالة الغفران كلاماً على الدنانير والعملة الاسلامية فيه تفصيلات لانجدها في كتب التاريخ التي بايدينا . وتفيض « اللزوميات » بذكر كثير من ملوك الفرس والروم والهند واليمن وحوادث الدولة الاسلامية وملوكها من نحو محمود ومسعود الغزنويين والاخشيد وابيه طغج وجده جف كما تذكر خاقان وخان وآلك (= أيلك)

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ العام الاسلامي وغير الاسلامي مادة انتفع بها الى ابعد مدى في تأييد آرائه وتقوية حججه وتجميل فنه المنثور والمنظوم فقدوجد في حوادث عصره أو في التاريخ المعاصر له مادة غزيرة اكسبت شعره ونثره حيوية عجيبة وأمدته بما أعانه على تكوين رأيه في السياسة ونظم الحكم والاجتماع بوجه عام . ونستطيع ان نقول ان شعر صباه وصدر كهولته الوارد في ديوانه « سقط الزند » يتصل اتصالاً وثيقاً بحوادث عصره بل هو صدى لحوادث ذلك العصر . وفي وسع من يقرأ « سقط الزند » « واللزوميات » ان يتبين صورة لابأس بها لحوادث الشام خاصة في زمن أبي العلاء .

كانت معرة النعمان معدودة من الاقليم المعروف « بالعواصم » والواقع على تخوم الدولة الاسلامية مما يلي مملكة الروم وقد أصبحت حلب اذ ذاك قاعدة ذلك

الأقليم ، وكانت متنازعة بين متأخري امراء الدولة الحمدانية وبين الدولة الفاطمية المصرية فيغلب بنو حمدان على أمرهم ويستولي الفاطميون على حلب ولكن سرعان ماانبرت للفاطميين اسرة عربية بدوية هي الاسرة المرداسية فتستولي على حلب سنة ٤١٤ على يد أسد الدولة صالح بن مرداس الكلابي . وقد تبعت المعرة حلب فيما اختلف عليها من الاحوال لذلك نجد أبا العلاء يمدح امراء حلب على اختلافهم من حمدانية وفاطمية . فيمدح الامير سعيد الدولة الحمداني بالقصائد الاولى من « سقط الزند » كالقصيدة اللامية الأولى ومطلعها :

اعن وخد القلاص كشفت حالا ومن عنـد الظلام طلبت مالا

كما يمدح ولاة الفاطميين على حلب في قصائد أخرى منها السينية التي مطلعها :

لولا تحية بعض الأربع الدرس ما هاب حد لساني حادث الحبس

ثم ان أهل المعرة ثاروا على صالح بن مرداس بسبب المرأة التي أهانها خمار نصراني فذهبت الى المسجد يوم الجمعة وقصت على الناس ما نالها فثاروا بالخمار وانتهبوا حانوته وهدموها والى هذا الحادث يشير ابو العلاء بقوله في اللزوميات :

اتت جامع يوم العروبة جامعا تقص على الشهاد بالمصر امرها
فلو لم يقوموا ناصرين لصوتها نخلت سماء الله تمطر جمرهـا
فهدوا بنـاء كان بأوي فناءه فواجر القت للفواحش خمرها

واستفحل الخطب عندما أشار على صـالح وزيره النصراني « تادرس » (وكان حنقاً على أهل المعرة) بقبض سبعين رجلاً منهم وسار صالح الى المعرة فأخرج اليه اهل المعرة ابا العـلاء شفيعاً فشفعه صالح واطلق له الاسارى السبعين سنة ٤١٨ والى ذلك يشير ابو العلاء بقوله في اللزوميات : .

تغيبت في منزلي برهـة ستير العيوب فقيد الحسد
فلما مضى العمر الا الأقل وحم لروحي فراق الجسد
بعثت شفيعاً الى صالح وذاك من القوم رأي فسد
فيسمع مني سجع الحمـام واسمع منه زئير الأسد
فلا يعجبني هذا النفـاق فكم نفقت محنة ما كسد

وباضمحلال نفوذ الفواطم في الشام اصبحت الشام نهباً لقبـائل العرب

المتبدية من لدن الجزيرة الى حدود مصر وخاصة قبائل كلاب وطيء وعامر والى ذلك يشير ابو العلاء بقوله :

أرى حلبا حازها صالح وجال سنان على جلقا
وحسان في سلفي طيء يصرف من عزه أبلقا
فلما رأت خيلهم بالغبار قتاما على جيشهم علقا
رمت جامع الرملة المستضام فأصبح بالدم قد خلقا
وما ينفع الكاعب المستبا ة هام على عضب فلقا
وطل قتيل فلم يدكر وغل أسير فما أطلقا
وكم تركت آهلاً وحده وكم غادرت مثرياً مملقا
يسائل في الحي عن ماله وما القول في طائر حلقا

واذا كانت هذه الأشعار تصور لنا الحوادث البارزة بالشام في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس فانها تصور لنا ناحية من نواحي شخصية ابي العلاء ، ناحية وطنية وحبه لبلده ومعشره وحزنه لما يصيبه واستعداده لأن يخدمه بنفوذه الأدبي عند الاقتضاء ، وهي أشعار تأتلف وشعره الذي قاله وهو في بغداد يتشوق بلده المعرة .

على أن لوطنية أبي العلاء مظهراً آخر . لقد كان للشام في زمنه عدو اجنبي يرقب الفرص للانقضاض عليه . ذلك العدو هو الروم وكان الروم بعد زمان سيف الدولة والتياث الأمر بالشام قد استولوا على انطاكية سنة ٣٥٨ واستولوا بعد على اللاذقية وذلك في أيام امبراطورهم نقفور قوقاس . ثم أخذوا يمدون أعينهم الى حلب . وكان سعيد الدولة الحمداني وولاة الفاطميين يدافعونهم جهدهم . وهنا تجد ابا العلاء يسخر فنه لا لخدمة وطنه فحسب ولكن لخدمة العالم الاسلامي كله ، فهو في مدائحه لعمال حلب يشيد دائماً بمقاومتهم الروم ، فيخاطب الأمير سعيد الدولة الحمداني (٣٨١ — ٣٩٢ هـ) بقوله :

حفظت المسلمين وقد توالت سحائب تحمل النوب الثقالا
وقيت عيالهم اذ كل عين تعد سواد ناظرها عيالا
بوقت لايطيق الليث فيه مساورة ولا السيد احتيالا

ويقول :

الى حارم قاد العتاق سواهماً لها من نشاط بالكماة زمال
بني الغدر هل الفيتم الحرب مرة وهل كف طعن عنكم ونضال
وهل اظلمت سحم الليالي عليكم وما حان من شمس النهار زوال
وهل طلعت شعث النواصي عواليا رعال ترامى خلفهن رعال
فان تسلموا من سورة الحرب مرة وتعصمكم شم الانوف طوال
ففي كل يوم غارة مشمعلة وفي كل عام غزوة ونزال

الى أن يقول في الخيل :

يردن دماء الروم وهي غريضة ويتركن ورد الماء وهو زلال
وقد علم الرومي انك حتفه على أن بعض الموقنين يخال

وكان الشيخ ابو الحسين بن سنان احد رؤساء حلب قد عزم على الحج فكتب اليه أبو العلاء ينهاه عن الحج في عامه ويريه ان الروم لحلب بالمرصاد فمن ذلك قوله: « وسفر مولاي الى الحج في هذا العام حرام بسل كما حرم صوم عيد الفطر وحظر على المحرم تضمخ بعطر . . . . . وهو ادام الله تمكينه . . . . . امين من امناء المسلمين يرهف الشوكة ويستجيد اللأمة ويحصن ماوهى من سور أوشرفات . . . . . ومن لحياطة الرعية بمداميك المدر . . . . . واجراء السمد لحفظها والقدر ، وحلب حرسها الله قد صار فيها رباط يغتنم ، وجهاز يرغب فيه ويتنافس ولا يلبث ان يزول بانعقاد الهدنة ، وعودة الجامع كلة الروم الى كرسيه من بزنطيه »

فقصائد أبي العلاء الواردة في « سقط الزند » والمتصلة بمدح امراء حلب المناضلين للروم تجري مجرى قصائد المتنبي المعروفة بالسيفيات والقصائد الروميات لأبي فراس الحمداني وهي حلقة من حلقات ملحمة الحروب العربية الرومية . على ان أبا العلاء كما يخيل الينا كان يلحظ فيما بينه وبين نفسه ان روح الجهاد قد فتر عند المسلمين وعند قومه خاصة وانهم امام استعلاء الروم وكلبهم عليهم قد التزموا خطة الدفاع دون الهجوم . وقد احب ان يعبر عن هذا الاعتقاد الذي استقر في نفسه من طريق الكناية والرمز ، فنظم تلك المجموعة الغريبة من القصائد المعروفة

« بالدرعيات » والوارد في آخر « سقط الزند » فالدرع اداة وقاية لاسلاح هجوم كالسيف والرمح والقوس . هذا ظننا في تعليل إنشائه هذه القصائد فان يكن ظننا صادقاً فقد أبدع أبو العلاء الرمز واجاد الكناية .

ويستعرض أبو العلاء جملة احوال العالم الاسلامي لعهده فيرى حالا لاتسره من ظلم واضطراب وفقر وطغيان ويجتهد في أن يطب لتلك الحال فيذهب الى أن الملوك والمتغلبين لم يدركوا انهم في حقيقة الامر خدام رعاياهم واجراؤها وأن الشعوب مستقر السلطان ومستمده :

مل المقام فكم اعاشر أمة ... امرت بغير صلاحها أمراؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها ... وعدوا مصالحها وهم اجراؤها

ويرى في علاج الفقر أن يؤخذ الناس باداء الزكاة المفروضة عليهم شرعاً :

واحسب الناس لو اعطوا زكاتهم ... لما رأيت بني الاعدام شاكينا
ياقوت ماانت ياقوت ولا ذهب ... فكيف تعجز اقواما مساكينا

ويرى ان الارض لله لايصح تملكها :

الارض لله ماستحيا الحلول بها ... أن يدعوها وهم في الدار اضياف
تنازعوا في عواري فبينهم ... نبل حطام وارماح واسياف

ويرى ان في امكان الناس ان يصلوا الى « المدينة الفاضلة » أو « اليوتوبيا » أو الجماعة السياسية المثالية اذا سلكوا طريق القصد وجادة الاعتدال :

ان اكلتم فضلاً وأنفقتمُ فضـ ... ـلاً فلا يدخلن وال عليكم
لا تولوا أموركم ايدي النا ... س اذا ردت الأمور اليكم

وكما وجد أبو العلاء في التاريخ قديمه والمعاصر له مادة غذت فنه الأدبي وأعانته على صوغ آرائه في الاصلاح السياسي والاجتماعي فقد وجد فيه كذلك مادة لآرائه الفلسفية الخاصة به . لقد عرض تواريخ الأفراد والملوك والأسر والأمم وما يختلف على الناس من احوال فوجد كل ذلك لا محالة منتهياً الى العدم والفناء ، رأى الحياة كلها أشبه شيء بعملية حسابية مركبة نتيجتها الصفر . ومن ثم ساء ظنه بالحياة ولم ير في سعي الناس سوى جهود عقيمة :

حوادث الدهر ما تنفك غادية على الأنام بإبلاس وتلبيس
الوت بكسرى ولم تترك مرازبه وبالمناذر أودت والقوابيس
زارت حسيناً وحست بالردى حسناً وواجهت آل عباس بتعبيس

والليل والنهار عنده شفا مقراض ياتيان على كل شيء :

الصبح أصْبَحُ والظلا م كما تراه احم حالك
يتباريان ويسلكا ن الى الورى ضيق المسالك
أسدان يفترسان من مرا به فأبه لذلك
حملا الممالك عن ردى قاض الى خان وآلك

والشر ، لا الخير هو الغالب على الناس :

والارض موطن شرة وضغائن ما أسمحت بسرور يوم فارد

هذه فلسفة التاريخ عند أبي العلاء وتفسيره إياه . هو تفسير رجل متشائم لا يرى في العالم ولا في الحياة شيئاً يسر . وهو من أجل ذلك يستعجل الفناء والعدم ويمتنع من الزواج الذي هو وسيلة النسل وبقاء النوع :

تواصل حبل النسل مابين آدم وبيني ولم يوصل بلامي باء

وهو سيء الظن بالناس زاهد فيهم .

وزهدني في الناس معرفتي بهم وعلمي بأن العالمين هباء

نهيتك عن خلاط الناس فاحذر أقاربك الادانى واحذرني
وان انا قلت لاتحمل جرازا فهز أخا السقاسق واضربني

الى أي شيء يرجع هذا التشاؤم ؟

قد يقول قائل ان مزاج أبي العلاء المتأثر بحياته التي اخذ نفسه بها بعد عودته من بغداد هو علة هذا التشاؤم . ولكن مزاج شاعرنا الفيلسوف نتيجة لاعلة لتلك الحال . فهو انما اخذ نفسه بحياة الزهد والتقشف البالغ بعد أن بلغ الاربعين وبعد أن استكمل خبرته بالناس والاشياء اذاً خبرته بالناس والاشياء في القديم وفي زمنه هي علة تشاؤمه . هي علمه بالتاريخ كما وصل اليه وكما عرفه .

لقد كان علم قدماء المؤرخين من الاغريق والرومان بالانسان وحياته قاصرا قصورا بينا . لقد بنوا الرواية التاريخية على حياة الفرد أو الاسرة أو القبيلة أو

المدينة أو طبقة بعينها ، ومن شأن التاريخ اذا بني على هذا الاساس ان يكون قاتم اللون مليئاً باخبار الفتن والثورات وظلم الانسان للانسان واستعباد الطبقات بعضها لبعض فلما اطلع فلاسفة الاغريق والرومان على هذا التاريخ تأثروا به في صوغ نظرياتهم عن الحياة جملة فجاءت نظريات ملؤها التشاؤم سواء في ذلك نظريات افلاطون والرواقيين والابيقوريين وصنيق ومارك اوريل . فمنهم من رأى ان العالم ينتقل في دورات زمنية تفتتح كل منها بعصر ذهبي مجيد ثم لايزال يتدلى ويضعف حتى تختتم الدورة بحال فوضى واضمحلال ثم تفتتح دورة أخرى وهلم جرا . ومنهم من رأى الانسان محدود القدرة مضروباً بينه وبين قوى لا حد لقدرتها هي الآلهة بنطاق لاسلطان له عليه فنغمة فلاسفة الاغريق والرومان نغمة حزن ويأس وحسرة على الناس والحياة بوجه عام . ثم جاءت العصور الوسطى الاوربية وساد سلطان النصرانية فأصبح الناس يرون ان هذه الدنيا دار بلاغ وان الآخرة هي دار القرار وان السعادة في هذه الدنيا ليست محققة وان الحياة الآخرة هي التي ترجى فيها السعادة والخلود . فازداد الناس ضيقا بالحياة واصبح شعارهم الزهد فيها وتمني الخلاص منها . والرواية التاريخية الشرقية لاتختلف في خصائصها العامة عن الرواية الغربية والمجتمع الشرقي القديم لم يكن يختلف اختلافا جوهريا عن المجتمع الاغريقي الروماني القديم ومن ثم كانت نظرة حكمائهم الى الحياة هي نفس نظرة حكماء الغرب نظرة يأس وحزن وتشاؤم . وفكرة الادوار التي تحدثنا عنها عند مفكري الاغريق والروم تقابل فكرة « الفترات الزمنية » التي تفتح بمجيء نبي أو رسول وتنتهي بقيام آخر والايمان بحياة مستقبلة ينعم فيها المؤمن ويخلد هي خير مايتعزى به المؤمن عما يصيبه من البلاء في هذه الدنيا

لم يلحظ القدماء على العموم ان الانسان ابتدأ ضعيفاً ثم صار بعقله واجتهاده وقوة ارادته يرقى شيئاً فشيئاً ولكنهم خصوا بعنايتهم ضعفه امام عوامل لاسلطان له عليها مثل القضاء والقدر والحياة الأخرى وعلاقته بخالقه سبحانه وتعالى .

وبعد فابو العلاء قد نهج في فلسفة التاريخ منهج المفكرين القدماء من المشارقة والمغاربة على السواء لأن العلة واحدة في الحالين . على أن تشاؤمه ويأسه ينطوي على حب حقيقي للانسان والانسانية واذا كان أبو العلاء شديد الرفق بالحيوان فلا شك في انه كان في اعماق نفسه اشد رفقاً بالانسان .

عبد الحميد العبادي